Issn:2572-0023

جذور الفكر الإصلاحي في الجزائر ومؤثراته (1830-1931)

د/فتح الدين بن أزواو
جامعة محمد بوضياف-المسيلة-

مقدمـــة :

نتناول في هذا المقال المؤثرات الداخلية والخارجية المساهمة في تشكل الفكر الإصلاحي بالجزائر ونركز على السياسة الاستعمارية في مجالها السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي والديني، نبين كيف كان لها التأثير المباشر في ظهور مجموعة من العلماء حملوا على عاتقهم لواء الإصلاح. ونثير تجربة الحركة الوطنية الجزائرية قبل1900م ، نشرح كيف أثرت في فكر العلماء لأن هذه الحركة في بعض أقطابها كانت قد انتبهت - قبل ظهور الجامعة الإسلامية - إلى ضرورة إصلاح الدين الإسلامي وأدركت عدم تعارض الإسلام مع نظم أوربا الحديثة وناقشت قضايا التضامن والوحدة الإسلامية وهذا منذ العشرية الثالثة من القرن التاسع عشر(كون الجزائر كانت أول أمة إسلامية خاضت أول مجابهة حضارية ضد أكبر قوة أوربية في العصر الحديث) ولنا في فكر حمدان خوجة وابن العنابي والكبابطي أمثلة على ذلك.

كما نناقش الصبغة التجديدية لأدبيات علماء الإصلاح الجزائريين في أوائل القرن العشرين التي كان لها عظيم الأثر على فكر جمعية العلماء. ثم نعرج على المؤثرات الخارجية؛ وهنا نتوقف عند دور الحركة الإصلاحية في المشرق ونشاط الجامعة الإسلامية ، حيث نبرز أوجه التواصل بين الجزائريين وهاتين الحركتين ، لنحاول في النهاية استنتاج مدى استفادة واستجابة الفكر الإصلاحي لهذه المؤثرات والتحولات.

1 - إرهاصات الفكر الإصلاحي الجزائري وعوامله (1830-1900م) :

كثيرا ما نقرأ بأن إرهاصات العمل السياسي والإصلاحي الوطني في الجزائر لم تبرز إلا مع مطلع القرن العشرين، وهذا الرأي يتناقض مع الوقائع التاريخية التي دلت على أن بذور هذا العمل إنما تشكلت منذ عام 1830 عندما تعرضت الجزائر للاحتلال فعلى إثر ذلك بدأ الشعور الوطني ينتاب الجزائريين ويدفعهم لفعل أي شيء لتخليص بلدهم من براثن الاستعمار أو التخفيف من ضرره على الأقل، وإذا كانت المقاومة المسلحة قد

قامت بدورها في هذا المجال فإن النشاط الإصلاحي عبر هو الآخر عن هذا الدور، تجسد في الحركة التي قادها المصلحون والعلماء، ولا ريب أن أهم عامل مؤثر هو سياسة الأمر الواقع التي فرضها الاستعمار الفرنسي على الجزائريين خاصة بعد تنكر فرنسا لاتفاق الجزائر واستعمالها لأساليب وحشية من أجل السيطرة على البلاد والعباد[1].

إلى جانب هذا فقد عرفت الجزائر في الفترة ذاتها بروز فئة مثقفة ثقافة فرنسية عالية مطلعة على التيارات الفكرية السائدة في ذلك الوقت ؛ كسيد أحمد بن الطاهر (تتلمذ عليه الأمير عبد القادر)[2] وابن العنابي ، وأحمد بن سحنون ، وأبو بوراس الناصر، وأحمد بوضربة ومصطفى بن كريم ، وحمدان بن عثمان خوجة [3] . هذا الأخير يعد واحدا من فطاحل علماء الجزائر ويعتبره مترجم كتاب المرآة من أكبر مفكري العالم الإسلامي لغزارة علمه وفكره الثاقب [4] .

والحق أن حمدان خوجة يعتبر من الأوائل الذين نادوا بالإصلاح في العالم الإسلامي حيث دعا إلى الاستفادة من الحضارة الأوربية بما يخدم ويفيد المجتمعات الإسلامية من أجل نهضتها فهو يقول: << وفي رحلتي إلى أوربا درست مبادئ الحرية الأوربية التي تشكل أساس الحكم التمثيلي الجمهوري ووجدت أن هذه المبادئ كانت تشبه المبادئ الأساسية لشريعتنا إذا استثنينا فارقا بسيطا في التطبيق وعليه فكل من يدرك الشريعتين إدراكا صحيحا يستطيع الموافقة بينهما وأعتقد أنه لن يتمكن من إنكار هذه الحقيقة >>[5] .

فحمدان خوجة كان يؤمن إيمانا عميقا بقيم الحضارة العربية الإسلامية وكان يرى أنها ما تراجعت إلا بعد استكانة أهلها إلى الجمود والانغلاق ، لذلك حث على الاجتهاد والتجديد بما يتناسب وطبيعة المرحلة التاريخية فهو يقول : << تترتب عن الزمن وحاجات الإنسان ظروف لم تتوقعها القوانين ، ولذلك يجب على المشرع أن يتفهم الضروريات ويعمل على إيجاد كيفية حكيمة لتطبيق هذه القوانين ، لكن من سوء الحظ أن سائر الملاك يجهلون مبادئ هذه القوانين ، مما جعل أوربا تنتقد تشريع الشرق >> [6] .

هذه المنظومة الفكرية التي كانت تتملك عقل حمدان خوجة هي التي ساعدته على إبراز الفوارق الطبيعية بين المجتمع الجزائري العربي الإسلامي والمجتمع الفرنسي وأدت به - بعد ذلك - إلى الحكم على الشرعية الحضارية والسياسية للاستعمار الفرنسي في الجزائر.وتقريبا تتوافق الأفكار التي طرحها خوجة مع أفكار ابن العنابي، الذي دعا- هو الآخر- إلى الاستفادة من الحضارة الغربية بما يخدم الأمة العربية والإسلامية لتجنب الضعف والانحلال [7].

هذا على المستوى الداخلي، أما على الصعيد الخارجي فإنه قبيل الاحتلال كان هناك تواصل بين الجزائر والعديد من المدن في الغرب والشرق ؛ فقد زارت شخصيات جزائرية مدينتي باريس ولندن واطلعت على ما يجري في أوربا من تطورات سياسية هامة ، وفي اتجاه الشرق كان التواصل أعمق من ذلك ؛ فقد كانت هناك روابط متينة بين أهالي

الجزائر وسكان المدن الكبرى ، كالإسكندرية وبيروت ودمشق وبعض المدن التركية[8]؛ ونضرب مثالا على ذلك ، تلك الزيارات التي قام بها حمدان بن عثمان خوجة إلى القسطنطينية ومدن أخرى في الشرق والغرب ، والتي كانت عاملا رئيسيا في انفتاح شخصيته وتبنيه لأفكار جديدة ، وفي هذا الصدد قال المؤرخ الزبيري : << إن هذه الاحتكاكات ستجعل منه فيما بعد رجلا متنورا عالما بكل ما يجري حوله ، وستساعده على أن يخاطب أعداءه في لهجة المدرك المتبصر الذي يعرف الديمقراطية والقومية >> [9].

كذلك وجدنا أن ابن العنابي قد هاجر إلى مصر(1830)، وأسندت له الفتوى هناك- نظرا لمكانته العلمية- ودون شك فإن شخصية كابن العنابي، الذي كان يعد من رواد التجديد الإسلامي قد جلبت انتباهه نهضة محمد علي، التي أعجب بها[10] واستلهم منها، وكذلك الأمر بالنسبة للأمير عبد القادر وأحمد باي؛ فقد زار هذا الأخير المشرق العربي وحجّ واطّلع على ما كان يجري هناك في عهد محمود الثاني ومحمد علي باشا من خلال عملية الإصلاحات والنهضة والمسألة الشرقية[11] وانفتح الأمير – خلال جولته التي قادته إلى الحجاز ودمشق وبغداد – على التراث العربي الإسلامي خاصة العلوم والآداب العربية والتقى بالعلماء والسياسيين كمحمد علي زعيم النهضة المصرية [12]. والكلام نفسه ينطبق على الحاج على السعدي الذي حجّ وبقي مدة قبل الاحتلال في المشرق وأخذ تعليما هناك والذي نراه فيما بعد يعود ويدعم جهاد الأمير[13].

لقد كان حمدان خوجة من أهم الشخصيات التي دافعت بلسانها وقلمها ضد سياسة الفرنسة معبرا في ذلك عن وطنية صادقة في أكثر من مرة؛ ومن ذلك نذكر التقرير الذي حرره ورفعه إلى المسؤولين الفرنسيين (3 جوان 1833) [14]، تضمن ثماني عشرة نقطة تتعلق بالانتهاكات الفرنسية – خاصة المؤسسات الدينية والتعليمية – وطريقة معالجة المسألة الجزائرية، ومن جملة الحلول التي اقترحها إحداث لجنة للتحقيق في الأوضاع التي آل إليها الجزائريون [15].

ويظهر لك من هذه الدعوة مدى حرص الرجل على الدفاع عن السكان من الخطر الذي يهددهم في دينهم وممتلكاتهم وأعراضهم ، وبحكم أنه شخص لا يملك من الوسائل التي تمكنه من التصدي للاستعمار ، فقد اهتدى بفكرة الثاقب إلى معالجة هذه المحنة بأساليب سلمية مرنة لعلها تفضي إلى نتائج أفضل .

وبإصداره للكتاب الشهير << المرأة >> تبينت المواقف الحقيقية لحمدان خوجة من الاستعمار فالعبارات التي أطلقها فيه بينت أن الرجل كان يتوق لأن تتحرر بلاده كما تحررت بعض الدول الأوربية (اليونان ، بلجيكا ، بولونيا) ، وقد تأثر عندما شاهد هذه الدول تتحرر بينما بلاده لا تزال تقبع تحت نير الاستعمار[16]. لذلك دعا صراحة إلى << إقامة حكومة أهلية حرة مستقلة >>[17]. وكانت فكرته هذه نابعة من إيمانه بأن الجزائر بلد عربي

مسلم له شخصيته العربية المستقلة ، يشكل قومية تختلف اختلافا جذريا عن القومية الفرنسية ، ومن ذلك فله الحق في التحرر كباقي القوميات الأوربية . فالأمة الفرنسية والأمة الجزائرية – في نظر خوجة – لا يمكن أن تتعايشا في الجزائر ، لأن عناصر الشبه بينهما معدومة في اللغة والعادات والتقاليد ، وعليه فالوطنية وجدت نتيجة الاحتلال، وما يمكن أن تفعله فرنسا للجزائريين في مثل هذا الحال هو تأييد فكرة الكيان الجزائري كما فعلت مع اليونان وبلجيكا [18].

وبذلك يمكن القول إن حمدان خوجة كان أول سياسي جزائري يطالب بالاستقلال التام للجزائر وإقامة حكم عربي[19] ، لذلك اعتبره البعض الأب الروحي للحركة القومية الحضرية غداة الاحتلال[20]. بل ذهب سعد الله إلى وصفه بزعيم الفكرة القومية العربية الإسلامية كونه أول جزائري عربي مسلم آمن بفكرة القومية للأمة العربية الإسلامية بمفهومها الحديث ، لأن الفكرة الأوربية للقومية حسب سعد الله لم تظهر في العالم العربي الإسلامي إلا في أواخر القرن التاسع عشر وهي الفترة التي سبقها حمدان خوجة فضلا أنه كان أول عربي مسلم يطرد من وطنه على يد الاستعمار من أجل قضية قومية [21].

وإذا جئنا لاستعراض مواقف أخرى للطبقة المثقفة ، فإننا نجد – مثلا – ابن العنابي (المفتي الحنفي) ، الذي لبى دعوة حسين باشا في إعلان الجهاد وقام بدور هام في هذا المجال ، لكن – كما يذكر المؤخرون – أن الأمور خرجت من يده بعد توقيع معاهدة الاستسلام [22] ، ورغم ما ذكره سعد الله من كون ابن العنابي كانت له << عاطفة عثمانية حارة >> وأنه كان << يخطط وينتظر>> من أجل استرجاع الحكم الإسلامي العثماني[23] فإن ذلك لا يمنعنا من إدراجه ضمن رواد الوطنية الجزائرية عشية الاحتلال – رغم أنه كان من هواة الحكم العثماني – ذلك أن الرجل أبلى البلاء الحسن في الدفاع عن قضايا العروبة والإسلام ، فقد ذكر حمدان خوجة أن ابن العنابي أقلق الجنرال كلوزيل بكتاباته ومراسلاته انتقده فيها على خرق فرنسا لبنود معاهدة الاستسلام والتي منها على الخصوص احترام الجزائريين في دينهم وأملاكهم[24] ، كما له مراسلات أخرى عارض فيها – بشدة – مصادرة الأوقاف الإسلامية [25]. لذلك وبسبب هذه المضايقات التي سببها للاحتلال ، وخوفا من تأثر السكان بمطالبه سجنته الإدارة الفرنسية وأهانت أسرته [26] ثم نفته [27].

ويشبه حال ابن العنابي مع الإدارة الاستعمارية مع حال المفتي المالكي (الكبابطي) فهو الأخر وقف بالمرصاد لسياسات مصادرة الأوقاف فعارض قرار بيجو (23 مارس 1843) الذي نص على ضم الأوقاف إلى إدارة أملاك الدولة (الدومين) ، وأي أوقاف؟ إنها أوقاف مكة والمدينة ذات الريع الوفير والتي كانت تغطي نفقات المؤسسات

التعليمية والدينية[28] ، كما تصدى لقرار ثان – لا يقل خطورة – هو إجبارية تعليم اللغة الفرنسية في المدارس القرآنية [29].

لقد تزعم الكبابطي لواء المعارضة الشعبية ضد هذين القرارين – بالرغم من أنه كان معينا من إدارة الاحتلال للإشراف على الفتوى والشؤون الدينية – وأثار دعاية ضدهما معتبرا تلك الإجراءات تعديا على حرمة الدين ولغة القرآن ، لذلك سارعت فرنسا إلى عزله وسجنه ثم نفيه [30].

2– مؤثرات الفكر الإصلاحي في الثلث الأول من القرن العشرين 1900–1931م :

كان الإسلام في الجزائر– إبان القرن التاسع عشر– يعيش في عزلة، فرغم رواج الحركة الإصلاحية السلفية في أصقاع شتى من العالم العربي الإسلامي فإن الجزائر انتظرت إلى مطلع القرن العشرين لتباشر المحاولات الأولى لعملية التكيف لإخراج الإسلام من حالة الركود والجمود [31].

في مطلع القرن العشرين اكتشفت الجزائر نفسها بولادة النهضة [32] التي هيأت للإسلام الجزائري إطارا مناسبا للارتقاء والتجديد ، وتدخل هذه العملية في إطار تغيير الجزائريين لأشكال الصراع الحضاري ضد الاستعمار الفرنسي بعد المستجدات الحاصلة على الساحتين الداخلية والخارجية .

لقد بلغ الجمود الفكري والديني درجة لا تطاق بعد أن تمكنت الطرق الصوفية فرض سلطانها على المجتمع الجزائري؛ فقد بلغ تعدادها (349) زاوية وأتباعها حوالي (300000) تابعا [33] ، هذه الطرق رغم صدق رجالاتها الأوائل ودورها الفعال في الجهاد و نشر الإسلام والتربية الروحية ، فإن معظمها لم يواصل ذلك النهج الذي رسم لها ؛ فقد تزعمها – بعد ذلك– شيوخ لا يمتلكون ناصية العلم ولا زينة الخلق ولاطريق الاستقامة[34] فظهرت في صفوفهم – مع مرو الزمن – البدع والخرافات وادعوا لأنفسهم صفات الألوهية بأنهم قادرون على العطاء والمنع . وقد وجد الاستعمار في هذه الطرقية المنحرفة صيدا ثمينا فسخرها لخدمة أغراضه في نشر فكرة القدرية والتواكل وزيادة التخذير والتكاسل فانتشر الجهل والجمود [35] .

تزامنا مع هذا الوضع تواصلت سياسة القمع والتمييز خاصة بعد حصول الوالي العام على صلاحيات مطلقة بقرار 23 أوت 1898 [36]، واستمر العمل بقانون الأهالي ، وظهرت قوانين أخرى أكثر وطأة ، كقانون (1902) الذي أوجد المحاكم الزجرية الرادعة ردا على انتفاضة عين التركي[37] ومنشور جونار (1906) [38] وقانون الطوارئ والرقابة ، وكان أخطرها قانون التجنيد الإجباري (فيفري 1912)[39] الذي كان وقعه على الجزائريين كالزلزال المدمر، لفداحة تشريعاته المتناقضة مع الديانة الإسلامية وحتى مع حقوق الموطنة الفرنسية. كما استمرت في الفترة نفسها

عملية الإنهاك الاقتصادي من خلال الضرائب ومصادرة الأراضي.كل هذه الظروف تزامنت مع قهر الاستعمار للمقاومات المسلحة وإصراره على إبادة كل حركة وطنية مناوئة له حفاظا على مصالحه الإستراتيجية [40].

هذا المناخ الثقافي والسياسي المتردي قابله نوع من الأمل بعد ظهور مجموعة من رواد النهضة الإصلاحية ، الذين قاموا بدور في حركة التعليم والتأليف وإحياء التراث والإصلاح الديني ، نذكر منهم على الخصوص : الشيخ عبد القادر المجاوي ، أبو القاسم الحفناوي ، مصطفى بن الخوجة ، عبد الحليم بن سماية، الدكتور محمد بن أبي شنب ، حمدان الونيسي[41]، سعيد بن زكري، المولود بن الموهوب عمر راسم ، عمر بن قدور[42].

لقد وجد هؤلاء في الجمعيات والنوادي الثقافية التي أنشأتها النخبة [43] إطارا للانتقاد وتبادل الأفكار في القضايا الدينية والثقافية والسياسية والاجتماعية ، من خلال المحاضرات أو قراءة الصحف العربية ، والكتب الجديدة الواردة من المشرق والاطلاع على أخبار العالم العربي الإسلامي ، تماشيا مع العصر وتيار النهضة العربية وروح التجديد [44].

على صعيد آخر فإن تأثيرات الجامعة الإسلامية والحركة النهضوية الإصلاحية في المشرق العربي[45] كانت قد وصلت إلى الجزائر مطلع القرن العشرين[46]. والجامعة الإسلامية هي حركة تهدف إلى إحداث التضامن في أوساط العالم الإسلامي والتصدي للاستعمار من أجل تحقيق الوحدة منهجها في ذلك الإصلاح الديني والاجتماعي بتحرير العقل والعودة بالدين إلى صفائه الأول كما كان على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، من زعماء هذه الحركة : جمال الدين الأفغاني ، محمد عبده[47]رشيد رضا وآخرون. قد احتضن هذه الدعوة السلطان العثماني عبد الحميد الثاني ، لأنها كانت تصب في تثبيت ركائز الإمبراطورية العثمانية ، لذلك اعتبر نفسه هو الرمز الروحي والسياسي لها.

ورغم أن الجزائريين كانوا قد انتبهوا – قبل ظهور تيار الجامعة الإسلامية – إلى ضرورة إصلاح الدين الإسلامي وأدركوا عدم تعارض الإسلام مع النظم الأوربية الحديثة وناقشوا قضايا التضامن والوحدة الإسلامية والخلافة ، وهذا منذ العشرية الثالثة من القرن التاسع عشر ، كون الجزائر كانت أول أمة إسلامية خاضت أو مجابهة حضارية ضد أكبر قوة أوربية خلال العصر الحديث[48] ، فإنه رغم ذلك لا يمنعنا القول بأن الجزائر مع نهاية القرن التاسع عشر كانت قد وصلت إلى مرحلة الإنهاك قبل أن تنهض من جديد في مطلع القرن العشرين لتكون من المرحبين والمؤمنين بهذا التيار الذي كانت أول الداعين له.

كان السلطان عبد الحميد الثاني عنصرا مؤثرا في تفعيل نشاط الجامعة الإسلامية بالجزائر[49]، فقد كانت رسائله تصل إليها[50]، كما أن بعض الجزائريين انخرطوا في الجمعيات الدينية التي أوجدها السلطان عبد الحميد في المدينة ،

وفتحت كذلك الأبواب للمهاجرين الجزائريين المقيمين في المشرق وتركيا للانضمام إلى لجان الجامعة الإسلامية هذه اللجان كانت تمثل المسلمين الذين كانوا يقبعون تحت الحكم الاستعماري [51].

لقد كانت فرنسا متوجسة من تأثيرات الجامعة الإسلامية في الجزائر لدرجة أنها اتهمت الجامعة بتدبير ثورتي عين التركي (1901) وعين بسام (1906) ، وهو ما جعل << جونار >> يشدد الرقابة على الجزائريين تجنبا لأي تواصل أو تأثير [52] . ورغم تلك الرقابة ، فإن الصحف والكتب والمنشورات المعبرة عن الفكر الإصلاحي التجديدي قد تسربت إلى الجزائر ؛ فهذه مجلة المنار[53] ذات التوجة العبدوي كان عليها إقبالا منقطع النظير لدى المثقفين بالعربية[54] ، بل كانوا يعتبرونها << لسان الإسلام الأكبر ومنبر الإصلاح >>[55] و كان أعلام الإصلاح والنهضة في الجزائر قد حمّلوا محمد عبده – أثناء زيارته الجزائر– وصية تضمنت دعوة رشيد رضا أن يجنب مجلة المنار الخوض في السياسة الفرنسية بالجزائر أو ذكر فرنسا بما يسؤها خشية أن تمنع وصول المجلة إليهم لأنها كما قالوا << هي مدد الحياة لنا فإذا انقطع انقطعت الحياة علينا >> [56].

كما كان لأفكار الشيخ محمد عبده عبر مجلة << العروة الوثقى >> [57] وكتبه الأخرى تأثيرا كبيرا على العلماء الجزائريين؛ فوجدنا مثلا عبد الحليم بن سماية وعبد القادر المجاوي ومحمد بن أبي شنب يدرّسون إنتاج محمد عبده الفكري (تفسير القرآن الكريم ورسالة التوحيد) [58] لتلامذتهم [59].

ثمة شئ آخر مهم يجب ذكره ؛ هو زيارة محمد عبده إلى الجزائر (1903) ، هذه الرحلة كان لها عظيم الأثر في نفوس المثقفين وعلماء الدين ، خاصة في الحواضر الكبرى (الجزائر، قسنطينة ، تلمسان) فقد تبنت الشخصيات العلمية المؤثرة في المجتمع كعبد الحليم بن سماية والمفتي الحنفي للمسجد المالكي ومفتي جامع السفير بالعاصمة أفكار محمد عبده بعد هذه الزيارة ، ويذكر المؤرخون أن هؤلاء العلماء أصبحوا يشكلون – مع بعض الأعيان والبورجوازيين بالعاصمة – تيارا أطلق عليه << حزب محمد عبده >> [60]. إن التأثير الهائل لمحمد عبده على الجزائر نجد صداه بعد وفاته (1905م) متمثلا في الالتفاف حول آثاره المكتوبة والمطبوعة [61] ، ومن خلال التواصل مع مجلة المنار وتأسيس الجزائريين لجرائد على نهج محمد عبده ؛ كجريدتي ذو الفقار (1913–1914م) والفاروق (1913م) [62].

هذا دون أن ننسى تأثير دعاة الإصلاح (المشارقة) الآخرين، الذين كان إنتاجهم الفكري يتسرب إلى الجزائر في مطلع القرن العشرين ، فقد كان الجزائريون يترقبون وصوله بشغف ويحيطونه بعناية واهتمام[63] ، كما هو الشأن لجريدة << المؤيد >> لعلي يوسف [64]، وكذا جريدة << اللواء >> للزعيم المصري مصطفى كامل [65]. هذا الأخير كانت أفكاره تلقى رواجا وإعجابا من المثقفين الجزائريين من خلال مقالاته الفاضحة لأساليب الاستعمار

وسياساته الخفية [66] وكتاباته ذات النزعة التجديدية في تحرير المرأة[67]. والقول نفسه ينطبق على كتابات عبد الرحمان الكواكبي ، التي لقيت هي الأخرى رواجا في الجزائر، خاصة كتابي << أم القرى >> و<< طبائع الاستبداد >> [68].

يضاف إلى هذا فإن المهاجرين الجزائريين في المشرق العربي والدولة العثمانية كانوا قد اندمجوا في تيار الجامعة الإسلامية وفي الدعوة الإصلاحية السلفية ، لما كانوا يتمتعون به من حرية وسمعة طيبة ومكانة مرموقة داخل الأروقة الإدارية والأجهزة السياسية لدول المشرق العربي واسطنبول . وقد ساهموا – بطريقة أو بأخرى – في إطلاع إخوانهم الجزائريين على الأفكار الإصلاحية التجديدية في العالم العربي والإسلامي ، إما عن طريق الاتصال بذويهم ، أو عن طريق مواسم الحج والعمرة ، أو عن طريق التجارة والسياحة[69]. بل هناك من أولئك العلماء الجزائريين المهاجرين من كان يزور الجزائر وينبئ بني قومه عن هذه الحركية الجديدة التي كان يشهدها العالم العربي الإسلامي [70].

كذلك نجد في هذه الفترة أن دور الحرب العالمية الأولى كان لا يخلو من تأثير، بل كانت الجزائر من أكثر الأمم تأثرا بهذه الحرب[71]، وهذا لطبيعة المشاركة من جهة وحجم النتائج المترتبة من جهة أخرى؛ فقد بلغ عدد الذين شاركوا فيها حوالي 250000 جزائري، قتل منهم حوالي 56000[72] ، وقد حدث ذهولا لدى الجزائريين عندما أجبروا على المشاركة في هذه الحرب – بحجم هذه العذابات والخسائر – في سبيل استعمار تنكر لأبسط حقوقهم ما جعلهم يستنهضون الهمم ويجددون العزائم لإصلاح أوضاع بلادهم كتعويض لموقف فرنسا السلبي ، فكانت هذه الحرب – رغم النكبات – عاملا من عوامل الوعي واليقظة . خاصة إذا علمنا أن الجزائريين المشاركين فيها كانوا قد اتصلوا بالعلماء والمصلحين المتواجدين بأوربا (مشارقة ومغاربة)، واطلعوا على الأساليب الحضارية للأمم الأوربية كمبادئ الديمقراطية والحرية المغيبة في بلادهم[73]، كما اطلعوا كذلك على مبدأ ولسن الداعي إلى حق الشعوب في تقرير مصيرها [74].

إضافة إلى هذا الحدث العالمي ، فإن الجزائر كانت تعيش على وقع أحداث إقليمية هامة ؛ كفرض الهيمنة الأوربية على تونس (1881) ومصر (1882) وليبيا (1911) والمغرب (1912) ، والحركة المهدوية في السودان، وانقلاب الاتحاديين ضد السلطان عبد الحميد الثاني (1908) . ولقد كان الجزائريون على دراية بجسامة هذه المستجدات التي طرأت في محيطهم العربي الإسلامي فكانوا يتابعونها بوعي واهتمام شديدين[75] فمثلا كان سقوط السلطان عبد الحميد الثاني قد أدهش الجزائريين، كما نجد الصدى نفسه قد أحدثته الحرب الإيطالية العثمانية في ليبيا ، وكذا احتلال تونس، الذي أحدث هيجانا في الجزائر دفع فرنسا إلى أخذ التدابير اللازمة [76].

إذن، فنهاية القرن التاسع وبداية القرن العشرين كانت فترة مفعمة بالتحديات والرهانات وكان لزاما على الجزائريين التأقلم مع هذا الوضع ، وإعادة تكييف مقاومتهم حسب مقتضيات المرحلة للتصدي للسياسة الفرنسية ، فكانت البوادر الأولى للحركة الإصلاحية.

3– تبلور الخطاب الإصلاحي الجزائري 1900–1931م (القضايا المعالجة والمنهج المتبع) :

كان نشاط العلماء المصلحين الجزائريين – في مطلع القرن العشرين – يصب في اتجاه مفعم بالحيوية والنشاط ، في هذا الإطار سطعت نجوم أسماء كثيرة قامت بدور فعال في تشكيل اللبنات الأولى للحركة الإصلاحية الجزائرية؛ فهذا عبد الحليم بن سماية ، المصلح السلفي ، كان منبرا من منابر الجامعة الإسلامية في الجزائر[77]، دافع عن قضايا التضامن الإسلامي والخلافة، فقد رفض أن يصدر فتوى تجيز محاربة العثمانيين خلال الحرب العالمية الأولى ، بل أعلن – صراحة – أنه << لا يجوز محاربة العثمانيين فهم دولتنا >>(78) لعب الرجل دورا كبيرا في الحركة التعليمية، إذ تخرج على يده نفر من الطلاب بالمدرسة الثعالبية بالعاصمة [79].

خاض ابن سماية في قضية عصره (التجنيد الإجباري) ، والتي كانت من أعقد وأخطر القضايا التي واجهها الجزائريون في صراعهم ضد الاستعمار – مطلع القرن العشرين– لأنها كانت قضية تتعلق بشرف وديانة الجنود الجزائريين، التي انتهكتها فرنسا بقانون 1912 عندما فرضت عليهم التجنيد في صفوف الجيش الفرنسي براتب – جعلتهم يشعرون وكأنهم مرتزقة – والقتال تحت علم أجنبي قد يؤدي بهم إلى محاربة إخوانهم في الدين ، وهو ما اعتبروه استهتارا حقيقيا بقيم الإسلام ، لأن المسلم لا يقاتل إلا في سبيل الله وتحت راية إسلامية فقط [80] .

لذلك تصدى الجزائريون لهذا المشروع ، وتزعم هذه المعارضة ابن سماية ، عندما فوضه العلماء المحافظون والأعيان التحدث باسمهم في دار المجلس البلدي بدعوة من رئيس هذا المجلس << دوغلان >> ليبدي الجزائريون رأيهم حول هذا المشروع قبل تحويله إلى قانون رسمي ، وفي يوم 25 جويلية 1911، أي قبل صدور هذا القانون بحوالي سبعة أشهر، انعقد المجلس البلدي للاستماع إلى مختلف المواقف من هذا القانون[81] ، فأخذ ابن سماية الكلمة ، وألقى خطابا تاريخيا ، تضمن شروحات حول أسباب رفض الجزائريين لمثل هذا المشروع ، حصرها أساسا في تعارضه مع مبادئ الدين الإسلامي واستشهد على ذلك بآيات من القرآن الكريم ، مبينا أن الجزائريين إذا أدوا الخدمة العسكرية تحت راية العلم الفرنسي لا يكونوا مسلمين حقيقيين ، ثم نبه إلى العواقب الخطيرة لهذا المشروع إذا ما قدر له النجاح ، وهي – حسب رأيه – تلحق << ضربة قاضية على القومية الدينية والجنسية إذ يقع اندماجهما بالأمة الفرنسية نهائيا>>[82]. وقد ذكر عمر بن قدور أن عبد الحليم بن سماية أسهب في خطابه محتجا ومعارضا هذا القانون حتى أثار ذلك بعض أعضاء النخبة الموالين لفرنسا في المجلس ، جعلهم ينتقدون ابن سماية آخذين عليه ربط

هذا الموضوع بالدين وفلسفة القرآن[83]! وأضاف ابن قدور أنه ما إن انتهى ابن سماية من خطابه حتى صاح الأعيان بأنهم موافقون تمام الموافقة على احتجاجه في رفض المشروع وتبعهم في ذلك المفتي الحنفي (محمد بوقندورة) ، إلى أن قال << وانتهت المفاوضة بقرار رفض التجنيد سواء بنيل الحقوق السياسية أم لا، ولم يفلح المتفرنجون في معارضتهم وقولهم أن الخدمة العسكرية نافعة للمسلمين، وخرجوا وهم المغضوب عليهم، وقد تفرق الملأ بعد أن أعلمهم رئيس البلدية بأنه سيوجه محضر الرفض المصدق عليه إلى الوالي العام ، فيوجهه هذا الأخير إلى الحكومة >> [84].

كذلك نجد عبد القادر المجاوي، الذي كانت له معرفة واسعة بالثقافة العربية الإسلامية والأوربية الغربية ، حارب من خلال كتاباته الخرافات والآفات الاجتماعية ودعا إلى الإصلاح الاجتماعي وهذا من خلال محاضراته و نشاطه في الصحافة[85] ، عمل ردحا من الزمن في التعليم كأستاذ للغة العربية والشريعة الإسلامية في المدرسة الجزائرية الفرنسية بالعاصمة وقسنطينة ، فتتلمذ على يده أعلام الفكر الإصلاحي كحمدان الونيسي والمولود بن الموهوب ، فساهم مساهمة معتبرة في النهضة الثقافية ، خاصة في عملية إحياء اللغة العربية والعلوم الإسلامية [86] ؛ فقد ألف ثلاثة عشر كتابا حول اللغة العربية وعلومها[87]. دعا المجاوي إلى الأخذ بالعلوم الحديثة واللغات الأجنبية من أجل إحداث النهضة ، وهو ما تضمنه كتابه << إرشاد المتعلمين >> ، ويذكر سعد الله أن هذا الكتاب أثار ضجة كبيرة في الأوساط الاستعمارية [88].

كذلك حفلت ، هذه الفترة ، بنشاط شخصية أخرى هو أبو القاسم الحفناوي صاحب العمل التاريخي الشهير<< تعريف الخلف برجال السلف >> ، هو بحث موسوعي يضم تراجم علماء وأدباء وفقهاء ومؤرخين جزائريين .عمل يدخل في إطار عملية إحياء التراث القومي لإعادة بعثه من جديد وهو بذلك يعود بالجزائريين إلى ماضيهم الحضاري، يجدد عزائمهم في النهوض بالثقافة الجزائرية لمواجهة زحف الثقافة الغازية [89]. ويلاحظ على كتابات الحفناوي في جريدة <<المبشر >>[90] ودروسه بالجامع الكبير ميوله نحو النزعة العلمية – إضافة إلى إبداعاته الأدبية والتاريخية – إذ حرر ثلاث رسائل مهمة في هذا المجال هي : << رفع المحل في تربية النحل >> و<< القول الصحيح في منافع التلقيح >> و << الخير المنتشر في حفظ صحة البشر >> [91] ورغم أن هذه الرسائل كانت مقتبسة من الكتب الفرنسية (كان يترجمها له موظفو الولاية العامة ترجمة حرفية) فإن الحفناوي ألبسها ثوبا عربيا في محاولة لإطلاع الجزائريين على العلوم الحديثة [92].

هذه النزعة التجديدية في الكتابة نجد صداها عند مصطفى بن الخوجة ، أحد المتحمسين البارزين لأفكار محمد عبده في الإصلاح والمتأثرين بآراء مصطفى كامل في تحرير المرأة ، فظهرت كتاباته تحمل خطابا لافتا لم يكن مألوفا في عصره ، وهي ما تضمنته عناوين رسائله : << إقامة البراهين العظام على نفي التعصب الديني في الإسلام >>

<< اللباب في أحكام الزينة والحجاب >> ، << تنوير الأذهان في الحث على التحرز وحفظ الأبدان >> ، << الاكتراث في حقوق الإناث >> [93].

ركز ابن الخوجة على نهضة المرأة الجزائرية [94] لإخراجها من عزلتها ومحاربة المفاهيم المغلوطة تجاهها ، بناء على منهج الشريعة الإسلامية. فنهضة المرأة المسلمة بالنسبة إليه هي الضمانة لصلاح المجتمع ويعد ابن الخوجة من الأوائل الذين اهتموا بالمرأة حيث سبق قاسم أمين في هذه المسألة من خلال كتابه << الاكتراث في حقوق الإناث >> الذي نشره سنة 1895 [95].

هذا المنحى الإصلاحي الذي انتهجه علماء الجزائر مطلع القرن العشرين نجده يسير في خط متواز مع نشاط بعض الصحف العربية التي بدأت تظهر في هذه الفترة ، وكان بعض مؤسسيها أولئك العلماء المصلحون.لذلك جاء خطابها جملة وتفصيلا لتوجهات أصحابها ، خاصة في مناهضتها للمرابطية المتحجرة ومعارضتها للفرنسة [96].وهنا تفرض جريدة << ذو الفقار>> [97] نفسها كإحدى الجرائد الأكثر تشددا في هذه المسألة ، والأكثر ميلا للفكر العبدوي .

لقد حدد صاحب الجريدة (عمر راسم) موقفه من ذلك منذ ولادة صحيفته ؛ ففي افتتاحية العدد الأول نقرأ: << أنشئت ذو الفقار للدفاع عن السنة المحمدية ومحاربة البدع الشيطانية التي أدت إلى هلاك المسلمين والمسلمات، إن جريدة ذو الفقار تتبع نزعة محمد عبده ، ولن تحيد عن السبيل الذي رسمها لها المصلحون الحقيقيون وتلتزم مبدئيا بالابتعاد عن السياسة لأن السياسة تحول الخير إلى شر>> [98].

ويكشف لنا العدد الثالث من الجريدة شغف عمر راسم بمحمد عبده ومنهجه الإصلاحي ففي افتتاحيته نجد صورة كبيرة للشيخ عبده وبجانبها عبارة << المدير الديني للجريدة >> [99] ثم أتبعت الجريدة هذه العبارة بعبارة أخرى : << إني أريد أن أنهض بالإسلام لما يعيد المسلمين ذلك المجد القديم والسلطان الواسع (100). وهو كلام يبدو أنه مأثورا عن الشيخ الإمام . ثم أوردت في الصفحة ذاتها بيتين شعريين لمحمد عبده :

<< ولست أبالي أن يقال محمد أبلى أم اكتضت به المآثم

ولكن دينا قد أردت صلاحه أحاذر أن تقضي عليه العمائم >> [101] .

وفي أسفل البيتين شرحت – إضاحا– مصطلح << العمائم >> وذكرت أنهم العلماء الجامدون أبناء المرابطين [102].

ولم يكتف عمر راسم الإشادة بمحمد عبده قبل أن يجعله المدير الديني لجريدته ، بل دأب على استعمال منهجه في إصلاح الواقع الاجتماعي والثقافي والديني بالجزائر ،على طريقة لم تكن مألوفة من قبل ، معتمدا في ذلك على

أسلوب الحوار والاستفهام ، من أجل الإضاح والإقناع . وإليك هذا النص النموذجي الذي ورد في جريدته : << ذو الفقار : مالك يا أماه كئيبة حزينة ؟ الجزائر: ألم ترى أن المساجد خلت وانهدمت والخمارات تعمرت وامتلأت هم أبنائي يحزنني لاعار الإنسانية >> [103].

كذلك حاول عمر راسم – من خلال جريدته – تنبيه الجزائريين إلى ضرورة التمسك بالقيم العربية الإسلامية لمواجهة الثقافة الغازية ، دون التنكر للمدنية الحديثة ، التي يقبل بها الإسلام في إطار منظومته الحضارية ، وهو ما وضحته الجريدة عندما طرحت سؤالا افتراضيا لرجل يطلب من خالته نزع لباسها العربي التقليدي من أجل التمدن! فترفض الخالة الطلب ، وتجيب قائلة : << هل لباسي العربي وعفتي الإسلامية يمنعان من أكون متمدنة >> [104] . ويكشف لنا هذا الحوار أن عمر راسم كان مطلعا على كتابات محمد عبده المتعلقة بعلاقة الإسلام بالحداثة والتمدن وأوجه التعارض والاتفاق بينهما .

خصص كذلك عمر راسم مساحات من صفحات جريدته لتاريخ الجزائر للتعريف به حق المعرفة بعيدا عن تشويه الاستعمار ، وهو ما تضمنه العدد الرابع عن الدوافع الحقيقية للاحتلال الفرنسي وهي دوافع كما ذكرت الجريدة لأطماع فرنسية قديمة تعود إلى عهد نابليون [105]. والتي أثبتت صحتها اليوم معظم الدراسات التاريخية الجادة التي لم تكن متوفرة أنذاك [106]. وكأن عمر راسم كان يحاول من ذلك إعادة بناء التاريخ الوطني على أسس منهجية سليمة تعتمد على الدقة والنقد ، وهي منهجية ما كانت الجزائر أن تصل إليها في ذلك الوقت.

وبحكم أنه عبدوي التوجه مؤمن بأفكار الجامعة الإسلامية ، فإنه كثيرا ما روج لقضايا العالم العربي خاصة القضية الفلسطينية ؛ فقد خاضت جريدته في هذه المسألة ، وركزت على إبراز نشاط الحركة الصهيونية محذرة من المخاطر التي قد تنجم عن سقوط الخلافة العثمانية وتداعياتها على فلسطين[107] . وبذلك تكون الجريدة – كما قال أحمد توفيق المدني – << أول جريدة عربية في الدنيا اكتشفت الخطر الصهيوني ونبهت إليه >>[108].

تناولت ذو الفقار كذلك قضايا العالم العربي الإسلامي لتوثيق العروة بين الجزائريين وإخوانهم في الدين ، ناقلة معلوماتها عن المنار ، فوجدنا العدد الرابع مثلا قد خصص حيزا للحديث عن شؤون المسلمين في الهند وروسيا وتركستان ومنشوريا ويقظة المسلمين في جزيرة << جاوة >>[109].

أصدر عمر راسم – كذلك – جريدة الجزائر (1908) ، وقد اختار لها نفس الخط الذي اختاره لصحيفة ذو الفقار ، إلا أن عمر هذه الجريدة كان قصيرا جدا ، فقد صدر منها عددان فقط ، قبل أن تسارع الإدارة الفرنسية إلى توقيفها في نفس السنة [110] ، ورغم ذلك فإن العددين الصادرين سنة 1908 تنوعت مقالاتهما في الحديث عن قضايا النهضة والتعليم والتقدم، وهي القضايا الفكرية الشائكة التي كانت تنتظر حلولا سريعة في العالم العربي

والإسلامي ، كما تناولت هذه المقالات أحاديث عن النهضة المصرية ودورها، وأخرى عن المسألة الشرقية، ووضع المسلمين في الهند، ودور الاستعمار في تخلفهم ، وهيمنة هذا الاستعمار على البلاد المصرية [111].

وهكذا نجد أن عمر راسم كان شخصية إصلاحية فذة في عصره ، من خلال تلك القضايا التي طرحها وناقشها في جرائده – خاصة قضايا الوعي والنهضة والاستعمار – لتجعل منه داعية من أكبر دعاة الحركة الإصلاحية والجامعة الإسلامية في الجزائر، بل وفي العالم العربي والإسلامي ؛ فهو الذي دعا إلى ضرورة إحداث تعارف بين مسلمي الشرق والغرب ليوطدوا العلاقات ويوثقوا التضامن بينهم[112].

كذلك نجد ، في هذه الفترة ، شخصية إصلاحية أخرى – لامعة – هوعمر بن قدور صاحب جريدة << الفاروق >> [113] ، وهي إحدى الجرائد المغمورة المتأثرة بالفكر الإصلاحي عبارة عن دورية أسبوعية إسلامية ، وطنية تربوية ، أخلاقية ، اقتصادية واجتماعية كان مبدؤها العام الذي حدده لها صاحبها : الإصلاح الديني والاجتماعي عن طريق محاربة البدع والآفات الاجتماعية [114]. كانت تقتبس مقالاتها عن مجلة المنار[115].

كان ابن قدور صحافيا قديرا، ذائع الصيت ، ينشر في أكثر من أربع عشرة دورية عربية ؛ أهمها جريدة اللواء القاهرية ، وجريدة الحضارة لشهيد العروبة (عبد الحميد الزهراوي) . كانت مقالاته في هاته الجرائد تتناول الوضع الجزائري المتردي وأوضاع العالم العربي والإسلامي أواخر الخلافة العثمانية ، كالهجوم الإيطالي على ليبيا ، وحروب البلقان ، والتنافس الأوربي على المغرب ، وكثيرا ما كان يعيد نشر هذه المقالات في جريدته << الفاروق >> بالجزائر[116]. وقد كان هدفه من ذلك تحويل اهتمام الجزائريين إلى أفاق العالم الحضاري العربي الإسلامي [117] لتوثيق الصلة بينهم وبين هذا العالم وإخراجهم من دائرة العزلة المفروضة عليهم من طرف الاستعمار لتوعيتهم بضرورة إصلاح واقعهم الداخلي .

دعا عمر بن قدور إلى ضرورة التعارف والتضامن بين أبناء الأمة الإسلامية الواحدة لدرجة أنه اقترح مشروعا لهذه المسألة على مستوى المغرب العربي ليكون نواة لمشروع أوسع يشمل العالم الإسلامي أطلق عليه << جماعة التعارف الإسلامي >> ، فقد قال في هذا الشأن : << هل في الإمكان تأليف جماعة من مفكري مسلمي الجزائر وتونس والمغرب الأقصى ، تدعى جماعة التعارف الإسلامي >> [118] هذا التساؤل كان في الحقيقة مشروعا للبحث عن آلية لتوثيق التضامن والتعارف بين مختلف الشعوب الإسلامية ، خاصة إذا علمنا أن الجامعة الإسلامية قد ركزت كل جهودها على سبل إحياء التضامن بين أقطار العالم الإسلامي ، وهوما يجعلنا ندرك أهمية هذا الطرح الذي جاء به ابن قدور.

إلى جانب ذلك فقد خاض ابن قدور في قضايا أخرى شائكة كان يتخبط فيها العالم العربي والإسلامي وأرقت الجامعة الإسلامية ؛ كالهيمنة الاستعمارية ، والاختلاف والفرقة والجهل والجمود الديني والفكري نتيجة انتشار الفكر الخرافي القائم على البدع والخرافات والتواكل والتسليم بالقدر، هذه المسائل اعتبرها عنصر تعطيل حقيقي كبحت عجلة المجتمع الإسلامي نحو النهضة والتقدم[119]. وقد قدم الحلول لهذه المعضلات ، فحصرها في الاهتمام بالإصلاح الديني والأخلاقي، والاتحاد والتكتل ونبذ الفرقة والاختلاف (الإقليمي والمذهبي) وذلك بالالتفاف حول الكتاب والسنة [120].

على صعيد القضايا الداخلية فإن عمر بن قدور –كما يقول أحد الباحثين – يعد من أوائل الكتاب الجزائريين الذين قاوموا حركات الفرنسة والمسخ [121] ؛ وفعلا فقد خاض الرجل حربا لا هوادة فيها في قضية من أخطر القضايا التي كانت تتربص بها فرنسا المجتمع الجزائري ، هي الإدماج والتجنيس وتعد أفكاره في هذه المسألة إرهاصا للحركة الإصلاحية الحديثة التي ظهرت مطلع ثلاثينيات القرن العشرين [122].

في هذا الصدد أطلق ابن قدور عبارته الشهيرة << الإدماج الجنسي >> على مشروع التجنيس الفرنسي ، وقد شن عليه حملة في مختلف الصحف الجزائرية والعربية المشرقية بما في ذلك مجلة الحضارة الصادرة في اسطنبول ، هذه الأخيرة كتب قلمه فيها يقول << إنا قوم لنا قومية عروبتها متينة وحله قيمتها ثمينة ، وإن أصيبت أعضاؤنا بخدر نتيجة الحوادث ، فإن الأمل أنه خدر قصير المدة وسينقطع وتتحرك أعضاؤنا بنشاط تام ، فما لنا من رغبة في الاندماج بفرنسا ولا بغيرها من الأجناس وما لنا برغبة في نيل الحقوق التي تجر علينا الويل والدمار >> [123].

وبذلك فإن ابن قدور قد تصدى للنخبة المطالبة بنيل الحقوق مقابل التجنيس، منبها المسلمين إلى أن هذه الدعوات تهدف إلى إذابة الأمة الجزائرية في الأمة الفرنسية ، وبالتالي القضاء على العناصر الجوهرية التي تميز المسلمين الجزائريين عن الفرنسيين ، ما يؤدي إلى فقدان شخصيتهم ، وإذا فقدوها رضوا بالاحتلال وسلموا به [124]. هذه الرؤية سوف يكون لها عظيم الأثر على الحركة الإصلاحية البادیسية لمواجهة السياسة الفرنسية في هذا المجال.

كذلك واجه عمر بن قدور قانون التجنيد الإجباري بالاستنكار والرفض – ومثل ابن سماية – فقد كان واعيا لعواقب هذا المشروع ، لذلك سارع إلى التشهير بمخاطره[125] في محاولة لمنع تحوله إلى قانون رسمي[126]. وفي هذا الإطار سجل ابن قدور موقفه ومواقف الأعيان والعلماء بقيادة ابن سماية في جريدة الحضارة الصادرة بتركيا (1911) في مقال بعنوان << هفوات الأوربيين : مسألة تجند مسلمي الجزائر>>[127] أكد من خلاله رفض مسلمي الجزائر الشديد لهذا المشروع الخطير ، لأنه –كما وصفه – يخل بإحساساتهم الدينية وشعائرهم القومية ، فحسب منظوره أن الخدمة العسكرية في الجيش الفرنسي تفسد دين وأخلاق الشباب الجزائري ، وينقص فيهم الغيرة على

الدين والقومية . فكيف يقاتل المسلم في سبيل الكافر ! مذكرا بالآية الكريمة << وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين >> [128] ليحمّل فرنسا في مقاله تبعات جنايتها على الإسلام بهذا المشروع الذي تفكر في تطبيقه [129].

كذلك نجد في مطلع القرن العشرين رمزا آخرا من رموز الإصلاح هو المولود بن الموهوب الذي يختلف عن علماء عصره بغزارة أفكاره ووضوح منهجه حتى أن المؤرخ << أبو القاسم سعد الله >> سواه بحمد بن عثمان خوجة ، وجعله في << المرتبة الأولى من مصلحي الشرق الأدنى >> [130] .

عالج ابن الموهوب مسائل عديدة ، وضع من خلالها يده على الجرح في الجزائر التي كانت تعيش في حالة من الجهل والتخلف[131] ، وتذهب أراء ابن الموهوب في هذا المجال الى ضرورة التصدي للتخلف الفكري والثقافي وذلك بالتركيز على التعليم المزدوج (العربي والفرنسي) ، كان يبحث دائما على الاهتمام بدارسة العلوم (الزراعة، الطبيعة، الكيمياء، الرياضيات)، مذكرا بدور العرب الحضاري في هذا المجال ، داعيا إلى النهوض وطرد الكسل [132] .

ولكون ابن الموهوب موظفا رسميا لدى الإدارة الفرنسية ، فإنه لم تكن له الحرية الكاملة في إطلاق أفكاره السياسية [133] لذلك وجدناه قد اتخذ مواقف ذكية إصلاحية تحمل أبعادا سياسية ، مستلهما في ذلك منهج الجامعة الإسلامية والحركة الإصلاحية [134]، فدعوته إلى الوحدة والتضامن والتعاون والتقدم ونبذ القدرية المعطلة للشريعة الإسلامية والعقل الإنساني والنهوض بالإسلام الحقيقي [135] هي – بلا ريب– دعوة تصب في خدمة القضية الوطنية، بل هذه هي السياسة التي كانت تحتاجها الجزائر آنذاك لتمهد بها لعملية التحرير الشامل .

وبذلك فقد نحى ابن الموهوب منحى محمد عبده في منهج الدعوة الإصلاحية من خلال التركيز على الإصلاح التدريجي للنهوض بالمجتمع الجزائري من التخلف الفكري والثقافي ، وتجنب الهجوم المباشر على الإدارة الاستعمارية ، وكان هذا سببا في التفاف العلماء حوله وكذا النواب في المجالس البلدية ، بل وحتى النخبة والطلبة وبعض المثقفين الفرنسيين.

الخاتمـــة:

في الأخير نخلص إلى أن الحركة الإصلاحية الناشئة في الجزائر– مطلع القرن العشرين – قد استفادت من تجربة الحركة الوطنية الجزائرية ، ومن النظرية الإصلاحية للجامعة الإسلامية ، في خطها الذي يمثله محمد عبده ، فانتهجت أساليب جديدة ، اعتمدت على المهادنة والاهتمام بالإصلاح الديني والثقافي والاجتماعي ، لمواجهة سياسة الفرنسة والمسخ الحضاري. هذه المنهجية الجديدة يضاف إليها الصبغة التجديدية التنويرية لأدبيات علماء الإصلاح كان لها عظيم الأثر على العقل الجزائري ، الذي بدأ يتلخص – على الأقل وسط مثقفيه – من الخطاب التقليدي الذي

كانت تهيمن عليه الطرق الصوفية الجامدة، فانطلقت حركة الإصلاح تشق طريقها بنجاح وبدأت الجزائر تتكيف تدريجيا مع المتغيرات الجديدة التي كان يعيشها العالم العربي والإسلامي على وقع الحركة الإصلاحية السلفية. وهكذا فإن هذه المحطة كانت مفصلا من مفاصل المواجهة الحضارية بين الفكر الإصلاحي والاستعمار، لأن الحركة التي سوف تنبعث عن هذا الجهد الذي بذله الجزائريون مطلع القرن العشرين تكون أكثر قوة وإبداع ونشاط في الفكر والعمل معا.

وهنا نلفت الانتباه إلى أصالة الفكر الإصلاحي الجزائري، من حيث المنبع أومن حيث الأفكار التجديدية؛ لأنه في اعتقادنا بأن الفكر الإصلاحي بالجزائر تبلور في ظل سياسة الفرنسة والمسخ الحضاري الممارسة من طرف الاستعمار منذ 1830م، وقد تأصل هذا الفكر نتيجة الخبرة التي اكتسبها في الدفاع عن قضايا الجزائر وقضايا الأمة العربية الإسلامية وهذا ما يقلل من المواقف التي تعتبر المشرق العربي محل إلهام للجزائريين في هذا المجال، رغم أننا لا ننكر مساهمته.

الهوامـــش :

(1) ـ مصطفى الأشرف ، **الجزائر الأمة والمجتمع**، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر، 1983 ، ص 207 .

(2) ـ المرجع نفسه ، ص 48 .

(3) ـ أبو القاسم سعد الله ، **الحركة الوطنية الجزائرية** ، الجزء الأول ، المؤسسة الوطنية للكتاب ،الجزائر،1992 ، ص ص 86 ، 182

(4) ـ حمدان بن عثمان خوجة ، **المرآة** ، تقديم وتعريب و تحقيق : محمد العربي الزبيري الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، الجزائر ، 1982 ص ص 12 - 15،22 .

(5) ـ المصدر نفسه ، ص130 .

(6) ـ المصدر نفسه .

(7) ـ أبو القاسم سعد الله ، المرجع السابق ، ص ص 86 .

(8) ـ مصطفى الأشرف ، المرجع السابق ، ص 47 .

(9) محمد العربي الزبيري ، **مذكرات أحمد باي وحمدان خوجة وبوضربة** ، الشركة الوطنية للنشروالتوزيع ، الجزائر 1981 ، ص 99 .

(10) ـ أبو القاسم سعد الله ، ، المرجع السابق ، ص ص 115،186 .

(11) ـ المرجع نفسه ، ص ص 184- 185 .

(12) ـ خيرية عبد الصاحب وادي ، **الفكر القومي العربي في المغرب العربي** ، دار الرشيد للنشر ، بغداد ،1982 . ، ص ص35- 36 .

(13) ـ أبو القاسم سعد الله ، المرجع السابق ، ص ص 185 .

(14) ـ حمدان بن عثمان خوجة ، المصدر السابق ، ص 41 .

(15) ـ محمد العربي الزبيري ، **مذكرات أحمد باي وحمدان خوجة و بوضربة** ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، الجزائر ،1981. ص ص 140- 143 .

(16) ـ حمدان بن عثمان خوجة ، المصدر السابق ، ص 46 .

(17) ـ المصدر نفسه ، ص 35 .

(18) ـ أبو القاسم سعد الله ، **الحركة الوطنية الجزائرية** ، الجزء الثاني ، دار الغرب الإسلامي ، ط4 ، بيروت ، لبنان ، 1992 ، ص ص 34- 35 .

(19) ـ خيرية عبد الصاحب وادي ، المرجع السابق ، ص 43 .

(20) ـ مصطفى الأشرف ، المرجع السابق ، ص207 .

(21) ـ أبو القاسم سعد الله ، **الحركة الوطنية الجزائرية** ، الجزء الثاني ، المرجع السابق ، ص ص 75 .

(22) ـ المرجع نفسه ، الجزء الأول ، ص 115.

(23) ـ المرجع نفسه .

(24) ـ حمدان بن عثمان خوجة ، المصدر السابق ، ص 259 .

(25) ـ أبو القاسم سعد الله ، المرجع السابق ، ص ص 80 ، 81 .

(26) ـ حمدان بن عثمان خوجة ، المصدر السابق ، ص 259 .

(27) ـ محمد بن شوش ، << المقاومة الثقافية في الجزائر(1830-1870) >> ، مجلة المصادر، عدد 19، المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية ، الجزائر ، 2009 ، ص 50 .

(28) ـ أبوالقاسم سعدالله ، **أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر** ، الجزء الثاني ، المرجع السابق ، دارالغرب الإسلامي ، ط2 1990 ، ص 12 .

(29) ـ المرجع نفسه ، ص 13 .

(30) ـ المرجع نفسه ، ص ص 11- 14 .

([31]) ـ علي مراد ، **الحركة الإصلاحية الإسلامية في الجزائر: بحث في التاريخ الديني والاجتماعي 1925-1940** ترجمة محمد يحيا تين دار الحكمة ، الجزائر ، 2007 ، ص37 .

(32) ـ يحي بوعزيز، **الإتجاه اليميني في الحركة الوطنية الجزائرية من خلال نصوصه (1912– 1948)**، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، دون تاريخ ، ص ص 11– 13 .

(33) ـ تركي رابح عمامرة ، **الشيخ عبد الحميد ابن باديس رائد الإصلاح الإسلامي والتربية في الجزائر**، المؤسسة الوطنية للنشر و الإتصال ط5 ، الجزائر، 2001 ، ص 123 .

(34) ـ محمد مرو، **الجزائر تعود إلى محمد صلى الله عليه وسلم**، المختار الاسلامي للطبع للنشر والتوزيع، القاهرة،1992 ، ص 68 .

(35) ـ تركي رابح عمامرة ، المرجع السابق ، ص ص 124– 125 .

(36) ـ خيثر عبد النور، ، **منطلقات و أسس الحركة الوطنية الجزائرية (1930–1954)** ، منشورات المركز الوطني للدراسات و البحث في الحركة وثورة أول نوفمبر 1954 الجزائر،1997 ص 92 .

(37) ـ جمال قنان ، << مشاغل المجتمع الجزائري من خلال الصحافة 1882 – 1914 >> ، مجلة المصادر، العدد 09 المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية و ثورة أول نوفمبر 1954 ، الجزائر ، 2004 ، ص 34 .

(38) ـ صدر هذا المنشور ردا على ثورة 1906 ، من بين ما تضمنه منع المهرجانات و سجن كل جزائري غير موثوق به أنظر: أبو القاسم سعد الله ، **الحركة الوطنية الجزائرية** ، الجزء الثاني المرجع السابق ، ص106 .

(39) ـ المرجع نفسه ، ص ص 103، 106، 178، 194 .

(40) ـ خيثر عبد النور، المرجع السابق ، ص ص 86 ، 192 .

(41) ـ تركي رابح عمامرة ، المرجع السابق ، ص ص 132– 136 .

(42) ـ أبو القاسم سعد الله ، **الحركة الوطنية الجزائرية** ، الجزء الثاني ، المرجع السابق ، ص ص 134،135،147 .

(43) ـ: المرجع نفسه ، ص ص 59 ، 137– 140 .

(44) ـ الزبير سيف الإسلام ، **تاريخ الصحافة** ، الجزء الرابع ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر،1985 ، ص 27 .

(45) CAOM, Boite N° 16/43,le Réformisme en Islam(L'Association des ouléma Algériens),stage d'orientation des officiers des affaires Algériennes et des Administrateurs des Services civils Contractuels, capitaine carret Gaques. Exposé Fait le 16 Janvier 1956 par le

كذلك عثرنا على نفس هذا الملف في أرشيف فانسان .أنظر : SHAT, Boite N° 1 H 1724/1 .

(46) ـ محمد علي دبوز، **نهضة الجزائر الحديثة وثورة المباركة** ، الجزء الثاني ، وزارة الثقافة ، الجزائر، ص 27 .

(47) – عباس محمود العقاد ، **محمد عبده** ، منشورات المكتبة العصرية ، بيروت ، د ت ، ص 220-221 .

(48) ـ أبو القاسم سعد الله ، **الحركة الوطنية الجزائرية** ، الجزء الثاني ، المرجع السابق ، ص ص 109 ، 110 .

(49) ـ المرجع نفسه ، ص 112 .

(50) ـ أبو القاسم سعد الله ، << الإتجاهات الثقافية والفكرية للحركة الوطنية >> ، محاضرة ألقيت في الملتقى الوطني الأول حول تاريخ الثورة (28-31 اكتوبر 1981)، منشورة في كتاب : الطريق إلى نوفمبر ، الجزء الأول ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر، دت ، ص 147 .

(51) ـ أبو القاسم سعد الله ، **الحركة الوطنية الجزائرية** ، الجزء الثاني ، المرجع السابق ، ص ص 112- 114 .

(52) ـ يفسر هذا الخوف إعتقال السلطات الفرنسية لمجموعة أفراد قبارصة بتهمة نشر أفكار الجامعة الاسلامية في الجنوب الجزائري . أنظر : المرجع نفسه ، ص 113 .

(53) ـ تركي رابح عمامرة ، المرجع السابق ، ص 130 .

(54) ـ CAOM;Boite N° 10H/87 ,Le Courant Oriental –Oulemas Neo-Wahiabites

(55) ـ محمد على دبوز، المرجع السابق ، ص 29 .

(56) ـ محمد طهاري ، **الحركة الإصلاحية في الفكر الإسلامي المعاصر**، الكتاب الثالث الشيخ عبد الحميد بن باديس ، شركة دار الأمة للطباعة والنشر، ط1 ، الجزائر، 1999 ، ص 10 .

(57) ـ تركي رابح عمامرة ، المرجع السابق ، ص 36 .

(58) ـ اعترف مالك بن نبي بأن << رسالة التوحيد >> لمحمد عبده قد أثرت فيه تأثيرا بالغا ، وذكر أنها كانت عاملا من عوامل التحول الفكري لديه . أنظر: مالك بن نبي ، **مذكرات شاهد القرن** ، الجزء الأول ، ترجمة مروان القنواتي ، دار الفكر، بيروت ، 1969 ، ص 107 .

(59) ـ محمد على دبوز، المرجع السابق ، ص 29 .

(60) ـ علي مراد ، المرجع السابق ، ص ص 37- 38

(61) ـ مثال ذلك ، أن مصطفى بن الخوجة الكاتب والصحفي المعروف قرأ مقالا (كتبه محمد عبده) أربع عشرة مرة في عدة مناسبات . أنظر : الزبير سيف الإسلام ، المرجع السابق ، ص 31 .

(62) ـ علي مراد ، المرجع السابق ، ص ص 38 - 40 .

(63) ـ محمد علي دبوز، المرجع السابق ، ص 28 .

(64) ـ تركي رابح عمامرة ، المرجع السابق ، ص 130 كذلك : الزبير سيف الإسلام ، المرجع السابق ص 23

(65) ـ تركي رابح عمامرة ، المرجع السابق ، ص ص 130 - 131 .

(66) ـ محمد على دبوز ، المرجع السابق ، ص ص 33- 34 .

(67) ـ عشراتي سليمان ، ابن باديس : **مخاضات العبور الى العدوى الأخرى** ، الجزء الأول ، دارالغرب للنشر والتوزيع وهران ، الجزائر، 2006 ، ص 156 .

(68) ـ خيرية عبد الصاحب وادي ، المرجع السابق ، ص 61 .

(69) ـ أبو القاسم سعد الله ، **الحركة الوطنية الجزائرية** ، الجزء الثاني ، المرجع السابق ، ص 125 .

(70) ـ محمد علي دبوز ، المرجع السابق ، ص 37 .

(71) ـ المرجع نفسه ، ص 26 .

(72) ـ أبو القاسم سعد الله ، **الحركة الوطنية الجزائرية** ، الجزء الثاني ، المرجع السابق ، ص 199 .

(73) ـ محمد علي دبوز، المرجع السابق ، ص ص 26-27 .

(74) ـ علي مراد ، المرجع السابق ، ص ص 42 .

(75) ـ خيثر عبد النور ، المرجع السابق ، ص ص 88- 89 .

(76) ـ أبو القاسم سعد الله ، **الحركة الوطنية الجزائرية** ، الجزء الثاني ، المرجع السابق ، ص ص 112 ، 114 ، 117.

(77) ـ ذكر رشيد رضا أن عبد الحليم بن سماية اجتمع مع محمد عبده عند زيارة هذا الأخير الجزائر(1903) . أنظر: المرجع نفسه ، ص 149 . كذلك : تركي رابح عمامرة ، المرجع السابق ، ص 143 .

(78) ـ المرجع نفسه ، ص 135 .

(79) ـ المرجع نفسه ، ص 134 .

(80) ـ أبو القاسم سعد الله ، **الحركة الوطنية الجزائرية** ، الجزء الثاني ، المرجع السابق ، ص ص 177-181 .

(81) ـ صالح خرفي ، **الجزائر والأصالة الثورية** ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، دون تاريخ ، ص 150 .

(82) ـ نشر عمر بن قدور في جريدة الحضارة موقف أعيان وعلماء الجزائر بقيادة ابن سماية من هذا القانون. وقد نقل صالح خرفي هذا المقال كاملا في كتابه . أنظر : المرجع نفسه ، ص ص 149- 156 . نقلا عن جريدة الحضارة الصادرة في اسطنبول ، عدد 70 (08 أوت 1911) .

(83) ـ المرجع نفسه ، ص 151 .

(84) ـ المرجع نفسه ، ص 152 .

(85) ـ أبو القاسم سعد الله ، الحركة الوطنية الجزائرية ، الجزء الثاني ، المرجع السابق ، ص 135 . وكذلك : الزبير سيف الاسلام ، تاريخ الصحافة ، الجزء الرابع ، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، 1985 .، ص 160 .

(86) ـ عمر بن قينة ، **صوت الجزائر في الفكر العربي الحديث** ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1993ص ص 70- 71 .

(87) ـ تركي رابح عمامرة ، المرجع السابق ، ص 132 .

(88)) ـ أبو القاسم سعد الله ، << خطبة ابن الموهوب عند توليته الفتوى بقسنطينة سنة 1908 >> ، مجلة الثقافة ، الصادرة بالجزائر ، السنة 14 ، عدد 84 (1984) ، ص 167 .

(89) ـ تركي رابح عمامرة ، المرجع السابق ، ص 133

(90)الزبير سيف الإسلام ، المرجع السابق ، ص 43

(91) ـ عمر بن قينة ، المرجع السابق ،ص ص 126 - 127 .

(92) ـ المرجع نفسه .

(93) ـ سليمان الشيخ ، المرجع السابق ، ص ص 156-157 .

(94) ـ تركي رابح عمامرة ، المرجع السابق ، ص 134 .

(95) ـ رابح لونيسي ، **التيارات الفكرية في الجزائر المعاصرة بين الاتفاق والاختلاف 1920 – 1954**، دار كوكب العلوم الجزائر، 2009 ، ص 311 .

(96) ـ علي مراد ، المرجع السابق ، ص39 .

(97) ـ أطلق عمر راسم هذا الإسم على جريدته نسبة لسيف علي (كرم الله وجهه) الذي ورثه عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وتيمنا به ، أنظر: المرجع نفسه .

(98) ـ نقلا عن علي مراد ، المرجع نفسه ، ص 39 .

(99) ـ ذو الفقار ، عدد رقم 03 (14 جوان 1914) ، الإفتتاحية . (BNF , Microfilme)

(100) ـ المصدر نفسه .

(101) ـ المصدر نفسه .

(102) ـ المصدر نفسه .

(103) ـ المصدر نفسه .

(104) ـ المصدر نفسه .

(105) ـ المصدر نفسه ، عدد 04 (28 جوان 1914) ، ص 08 . (BNF , Microfilme)

(106) ـ جمال قنان ، **مشاغل المجتمع الجزائري من خلال الصحافة** ، مشاغل المجتمع الجزائري من خلال الصحافة 1882-1914، مجلة المصادر، العدد09 ، المركز الوطني للدراسات و البحث في الحركة الوطنية و ثورة أول نوفمبر 1954 ، الجزائر 2004 . ، ص ص 81-82 .

(107) ـ ذو الفقار ، عدد رقم 04 (28 جوان 1914) .

(108) ـ أحمد توفيق المدني ، **كتاب الجزائر**، دار الكتاب الجزائري ، ط 2، الجزائر، 1963 ، ص 345 .

(109) ـ ذو الفقار ، عدد رقم 04 (28 جوان 1914).

(110) ـ تركي رابح عمامرة ، المرجع السابق ، ص 138 . كذلك : الزبير سيف الإسلام ، المرجع السابق ، ص211 .

(111) ـ نشر الزبير سيف الإسلام في كتابه تاريخ الصحافة النسختين الكاملتين للعددين: الأول (27اكتوبر 1908)، والثاني (15 نوفمبر 1908) ، يتضمن كل عدد أربع صفحات ، وهي سليمة الخط واضحة المتن . أنظر: الزبيرسيف الإسلام المرجع السابق ، ص ص 211- 229 .

(112) ـ المرجع نفسه ص 221.

(113) ـ المرجع نفسه ، ص 103 . كذلك : صالح خرفي ، المرجع السابق ، ص 125 .

(114) ـ علي مراد ، المرجع السابق ، ص 40 .

(115) ـ تركي رابح عمامرة ، المرجع السابق ، ص 138 .

(116) ـ صالح خرفي ، << الجزائر ودورها في النهضة العربية الحديثة >> ، مجلة الثقافة الصادرة بالجزائر ، وزارة الإعلام والثقافة ، السنة الخامسة ، العدد 26 (أفريل - ماي 1975) ، ص ص 15- 16 .

(117) ـ جمال قنان ، ، قضايا و دراسات في تاريخ الجزائر الحديث و المعاصر، منشورات المتحف الوطني للمجاهد ، الجزائر ، 1994 . ، ص 174 .

(118) ـ محمد ناصر ، **المقالة الصحفية نشأتها . تطورها .أعلامها . من 1903 الى 1931** ، المجلد الأول ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر، 1978 ، ص 161 . نقلا عن : الفاروق عدد 66 (22 جوان 1914) .

(119) ـ المرجع نفسه ، ص 163 .

(120) ـ المرجع نفسه ، ص ص 164 - 165 .

(121) ـ المرجع نفسه ، ص 365 .

(122) ـ المرجع نفسه ، ص 366 .

(123) ـ المرجع نفسه ، ص 366 .

(124) ـ المرجع نفسه ، ص ص 366 ، 369 .

(125) ـ أبو القاسم سعد الله ، **الحركة الوطنية الجزائرية** ، الجزء الثاني ، المرجع السابق ، ص 176 .

(126) ـ صالح خرفي ، **الجزائر والأصالة الثورية** ، المرجع السابق ، ص 151 .

(127) ـ المرجع نفسه ، ص ص 149 – 156. نقلا عن جريدة الحضارة الصادرة باسطنبول عدد 70 (08 أوت 1911) .

(128) ـ سورة البقرة ، الآية 190 .

(129) ـ صالح خرفي ، **الجزائر والأصالة الثورية** ، المرجع السابق ، ص ص 153،149- 154 . نقلا عن جريدة الحضارة عدد 70 (08 أوت 1911) .

(130) ـ اعتمد سعد الله على هذا التصنيف كون ابن الموهوب نادى بالتضامن الإسلامي والوحدة والعودة بالدين الى صفائه الأول ، وحث على التقدم وطلب العلوم الحديثة ، ونبذ القدرية والجهل والجمود . أنظر : أبو القاسم سعد الله ، **الحركة الوطنية الجزائرية** ، الجزئرية ، الجزء الثاني ، المرجع السابق ، ص 150 .

(131) ـ ألقى ابن الموهوب خطبة عند توليه الفتوى بقسنطينة (1908) حذر فيها من الجهل والبدع والكسل ودعا إلى التعليم والتقدم . أنظر : أبو القاسم سعد الله ، << خطبة ابن الموهوب عن توليته الفتوى بقسنطينة سنة 1908 >> ، مجلة الثقافة الصادرة بالجزائر ، السنة 14 ، عدد 84 (1984) ، ص ص 171 – 173.

(132) ـ أبو القاسم سعد الله ، **الحركة الوطنية الجزائرية** ، الجزء الثاني ، المرجع السابق ، ص 150 - 153 .

(133)) ـ أحمد صاري، **شخصيات وقضايا من تاريخ الجزائر المعاصر**، المطبعة العربية ، غرداية ،الجزائر، 2004،ص 20.

(134) ـ أبو القاسم سعد الله: **الحركة الوطنية الجزائرية** ، الجزء الثاني ، المرجع السابق ، ص 156 .

(135) ـ المرجع نفسه ، ص ص 154- 156 .